باب التربية والتعليم

﴿ الباب الثاني (الولد) من كتاب اميل القرن التاسع عشر ﴾

« بقية المكتوب (٢٥) من هيلانه الى اراسم »

من السهل كثيراً على الاطفال ان يدركوا معنى الملك فى حق انفسهم ولكن من الصعب جداً اقناعهم بان للغير ملكاً يجب احترامه .

يشهد لذلك ما سأقصه عليك وهو ان مما يزرع فى انكلترا الراوند وهو نبات بهي المنظر شديد النمو يعرف فى مزارعه بعرض اوراقه وعلو سوقه يدخله اهل هذه البلاد لندرة الفواكه عندهم فى عمل اقراص ومربيات ينالون بها كثيراً سواء أخطأوا فى هذه المغالاة او اصابوا فترى اطفال القرى بسبب بقاء اذواقهم على حالها الفطرية كلفون باكل هذا النبات حتى انهم لا يحتاجون فى تعاطيه الى تسويته بالنار ولا الى ادخاله فى الاقراص بل انهم يأكلون سوقه الغضة فجة ويجدون لها طعماً مزاً . من اجل هذا حصل ان تلامذتي (لاني اعتبرهم كذلك) بينما كانوا يتنزهون وحدهم فى ضواحي بنزانس لمحوا حقلاً من حقوله فحركهم اليه كما حرك حمار الاسطورة[1] دعوة الفرصة لهم الى اغتنامها وغضوضة النبات وطراءته

(١) تشير الى حكاية الحمار والكلب وها كها منظومة من كتاب العيون اليواقظ

عطارنا واسمه فلان ... قد خانه الدهر والزمان
سافر من داره بجحش ... واسم ذا الجحش مرزبان
واتخذ الكلب حين ولى ... والكلب هذا اسمه امان
فحملوا غابة فحطوا ... مراحة زانها المكان

وبعض نزغات الشيطان فلم يكن الا أن تخطّوا ما يحيط بالحقل من الحواجز الواهية ثم انقضوا بقوتهم على بعض اشجار منه رأوها اطرى من غيرها فاكلوا منها كفايتهم ولكن لم يلبث وجدانهم بعد هذا ان اخذ يناجيهم فيما ارتكبوا فقال « اميل » وقد بدا خجله أتحسبان اننا قد احسنا فيما فعلنا فاضطر رفيقاه الى الاعتراف بانهم جميعاً قد اساؤا .

ثم استأنفوا الكلام فقال ولِمَ قول القدريّ الرزين لقد كان ما كان فلم يبق فى قدرتنا إصلاحه فأجابته بلى وهى لكونها اكبر منهما سناً اعرف بطرق المعاملات منهما : « بلى ان لنا سبيلاً للخروج عن تبعة هذا الخطأ لانه يصح لنا فى كل حال ان ندفع ثمن ما اتلفنا » فكان لما قالته لرفيقيها لمعة ابتهاج اشرق بها ضميرهما لانهما عوّلا على اصلاح التلف وبذلك يؤوبون الى بيتهم هادئ البال .

ونام مولى الجميع لما ... رأى مروجاً بها الامان
اما الحمار اعتراه جوع ... وحوله السد واللبان
فصار يرعى وما توانى ... وآن من حظه الأوان
قال له الكلب يا حبيبي ... الخبز في الخرج والدهان
ارقد على الجنب منك حق ... آكل فالجوع لى هوان
فاطرح القول ثم ولى ... ولم يطاوعه مرزبان
ولم يدم ان اتاه ذيب ... له للطمع الدما لسان
فقال للكلب قم اليه ... فانى معك لا اهان
قال له الكلب كيف هذا ... لا فاتك الضرب والطعان
احرمتنى الاكل فى نهارى ... والجوع لا شك ترجمان
ذق غصة الموت وامض عنى ... فالموت اولى به الجبان
واغتاله الذئب وهو يجرى ... ولم يدافع ولا امان
وهكذا فى الاصول قالوا ... كما يدين الفتى يدان

ولكنهم لم يلبثوا ان وقعوا فى حيرة عظيمة لانه لم يكن مع وليم وبلّى من النقود فلس واحد . واما « اميل » فانه كان غنياً بوجود بنى (عشر سنتيمات) فى جيب صُدرته ولم يتردد فى اخراجه ليدفعه ثمناً لما اكلوه ولما لم يروا فى الحقل احداً يقوم مقام مالكه فى قبض الثمن ادّتهم سذاجتهم الى ان وضعوا قطعة النقد على ورقة عريضة من اوراق الراوند وانصرفوا .

علمت بتفصيل هذه الواقعة من بدايتها الى نهايتها من الجناة انفسهم لانى لما كنت لا اعاجلهم بالعقاب على ما يقترفونه كانوا يحسبونى كأحد معلمى الاعتراف فيقرون لى بما يقترفونه من الذنوب طيبة به انفسهم ولما خفت ان يكون ما تركه الاطفال من الثمن غير كاف فى تعويض ما اتلفوه تراضيت مع المالك على قيمته ودفعتها له على انها لم تكن كثيرة . وبذلك حسمت هذه المسئلة بنفقات قليلة وانى كنت ابذل كل ما يطلب منى فى مقابلة ما اشرق فى بصائر أولئك النهابين الصغار من بريق العدل فى الوقت المناسب له ولو كان « اميل » هو الذى صدرت منه فكرة رد قيمة ما سلب لكان سروري بذلك اعظم كما لا اخفى عنك وفرحى به أكبر ولكنه له فضل بذل ما كان معه على قلته . كيف يكون تفهيم الاطفال ان كل ما ينبت على وجه الارض ليس مباحاً لجميع الناس ؟

ارى ان من احسن مدارس الاخلاق للصغار الذين هم فى سن « اميل » المدرسة الخلوية فانه قد تعلم فيها من نظره الى ما ينهمك فيه اهل القرى من الاشغال الشاقة اكثر مما يتعلمه بجميع البراهين الممكنة لانه يرى فى كل يوم ان القمح لا ينبت الا اذا بذرت الناس حبوبه وان اجود ارض لا تصلح للزراعة الا اذا قلبت وحرثت .

ثم ان الحيوانات ايضاً تعلمه اختصاص كل منها بما يملك . أذكر من ذلك مثلاً فأقول : انه يوجد في ضواحي بنزانس على شاطىء جدول يجري بعض اميال ثم ينصب في البحر لفيف من الاشجار يحوم على واحدة منها في غالب الاوقات طائر يقل وجوده في هذه الناحية وهو المسمى عند الانجليز بملك جوارح الطير وعند الفرنساويين بالخطاف الصياد (لعله الذي يسمى بالعربية الزُّمَّج) . استلفت هذا الطائر الجميل انظار اولادنا في اول الامر بهاء لونه ولكني نبهتهم الى ان شهرته بالمهارة في كسب قوته ليست باقل من شهرته بجمال سربالة فذلك لان هذا المسكين يكد في كسبه وينصب فانه يمكث ساعات كاملة في مكانه اي وراء غصن من الاغصان يحجبه عن الاعين ولا يعترض بصره حيث يراقب كما تعلم بعينيه اليقظاوين اللتين لا يقوتهما فائت مرور السمك في الماء فاذا سنحت له واحدة منها انقض عليها انقضاض السهم واصطادها ثم ارتفع بها معلقة في منقاره القوي الى محله وبعد ان يمزقها كل ممزق ويلتقمها يعود الى ما كان فيه من الترقب الشاق لعلمه ان الحظوظ نادرة وان شهوة الطعام ماكة عليه وقد شهد الاطفال ذات يوم قتالاً عجيباً وقع بينه وبين جارح آخر اراد ان يختلس ثمرة صيده فلم يلبث « اميل » ان فهم ان هذا الطائر الثاني هو السارق لانه اراد ان يسلب خصمه ما كسبه بجده وسعيه

من العواطف التي اريد ايضاً ان اغرسها في نفس ولدنا احترام ما يصيب الناس من العاهات وقد رأيت ان القاء الموعظ عليه في ذلك مما يضيع به الزمن عبثاً ولاحظت ايضاً ان كثيراً من الآباء والامهات يخطؤن بتمثيلهم عيوب الخلقة وضروب التشوه القطري لاولادهم في صورة عقوبات

الهية ومن الامثال على ذلك ان فتاة تسكن النزل الذى انا فيه شبّت على هذه الاوهام الشنيعة فكانت تعتقد اعتقاداً راسخاً فى عجوز من جيراننا شوهاء قوسماء ان الشيطان يسكن حدبتها . فالذى اريد اقناع « اميل » به هو عكس ذلك بالمرة فانى اريد ان افهمه من غير افراط فى تنبيه عاطفة الشفقة فيه ان من سلبهم الله من عباده محاسن الخلقة قد عوضهم منها مواهب لم تقسم لغيرهم وقد علمت بانه يوجد على مقربة من قرية مرازيون غلام اكمه يعيش من ثمرة كد والديه الذين هما من صلحاء الفلاحين فرأيت فيه فرصة حسنة لتجربة الفكر الذى تصورته وطلبت من تلامذتى الثلاثة ان يقبلوه رفيقاً لهم فرضوا بذلك لانه متى كان المقصود للاطفال التسلى والانشراح لا يعتبر عددهم كثيراً بالغاً مابلغ وقد يكون لرضائهم بصحبته سبب آخر وهو ان الانسان لا يكره مطلقاً ان يكون له رفيق يظهر علو درجته عليه لعلة فيه ككونه محروماً من بصر يضىء له سبيله وان كان ذلك الرفيق فى الحقيقة اشد منه قوة واكبر سناً فاننا كثيراً ما نشوب حنوّنا بشىء من الكبر والصلف والاطفال مثلنا فى ذلك وان لم يكونوا عالمين به . على انه لا حاجة بى الى استقصاء اسباب اعمالهم .

يتسلى عرمة الاطفال هنا فى فصل الربيع باصطياد طائر من الطيور الحاصة بكرنواي وهو الغراب الاعصم[1] ولكون هذا الطائر نفوراً فى حالته الفطرية تراه لا يسكن غالباً الا الاماكن المهجورة ولعلمه بشدة رغبة الناس فيه لندرته يدعوه ادراكه الى ان يتخذ وكنه فى وسط مالا يكاد

(١) الغراب الاعصم هو الاحمر الرجلين والمنقار وقيل الذى فى جناحه ريشة بيضاء

ينال من الصخور [1] ولكن الصغار البحاثين المنقبين لا يفلت شيء من ايديهم فبعضهم مدفوع فى بحثه بما فيه من حب الاستطلاع وبعضهم يحركه الى ذلك طمعه فى الربح لان هذا الغراب غالي القيمة ثم ان اكثر وجوده فى ضواحي بنزانس بالشعاف الوعرة المنتشرة حول خليج الجبل حيث يعتصم فى صخور الصوان المتصدعة المنقلبة بسبب ما انتابها فى غابر الازمان من الرجفات والزلازل ويوجد بالقرب من هذا المكان المتعزل الوعر قرية للصيادين تدعى (موس هول) ومعناه جحر الفأر وانما سميت كذلك لتعلقها على الساحل كانها جحر فأر فى حائط

انا لا استحسن بحال صيد هذا الطائر لاسباب مختلفة ولكنني ربما توهمت ان فى التعجيل باظهار مذهبي فى ذلك لتلامذتى خروجاً عن مقتضى السياسة والحزم لأنهم يرون لهم أسيً فى اطفال القرية تحركهم الى هذا الفعل ومن اجل ذلك لم امنعهم من الذهاب للصيد فانطلقوا فى بكرة ذات يوم يصحبهم الاكه ويتبعهم قوبيدون من بعد على غير مرأى منهم لانه يخاف عليهم ان يحل بهم خطر فى تسلقهم الصخور وكان وِلْيَم وبلّى يتناوبان العناية بشأن الاكه المسكين ويقودانه فانقضى نهارهم على ما يرام ولم يكن تنزههم على القنن الصوانية الا سبباً لازدياد شعورهم بعلو درجتهم على الاكه لانه كثيراً ما كانت تزل قدمه فى اقل العقبات وقد انستهم كثرة

---

(١) الوكن بالفتح عش الطائر فى جبل او جدار او مقره فى غير عش ج اوكن ووكن بالضم ويسمى الوكن وكنة بالتثليث وبضمتين ج كغرف وغرفات ووكنات بفتح الكاف وسكونها . ويقال اكنة وموكن . ووكن الطائر (كضرب) دخل الوكن والبيض حضنه فهو واكن ووكون

اشتغالهم انقضاء الزمن بحيث انهم لم يفرغوا من تناول طعامهم الشظف الذي تناولوه معاً حتى رأوا الشمس على وشك الغروب فدهمهم الليل وهم لا يزالون على مسافة بعيدة من البيت وكان اصعب ما عليهم في ذلك الوقت تمييز طريقهم الذي صعدوا الجبل منه فلما رآهم قوبيدون في هذه الحيرة اشتدت رغبته في ان يظهر لهم ويسكن روعهم ولم يمنعه من ذلك الا اخلاصه في اتباع ما ارشدته اليه فانتظر حتى يرى كيف يتخلص هؤلاء التائهون من ورطتهم

تدري أنه لما جن عليهم الليل انعكس الأمر فيهم كل الانعكاس فاسى الاكمه بصيراً لأنه بما حفظت ذاكرته ودقة لمسه (التي هي من خواص العمى) من مواقع الطريق قد ميز الشعاب التي مرّ بها في الصباح كل التميز فبات قائداً بعد ان كان مقوداً فلما رآه الاطفال على هذه الحالة يسترشد في الطريق باطراف اصابعه كان له فيها أعيناً كادوا يعتبرونه في ذلك الوقت ارقى منهم فهم في ذلك كالمتوحش يسهل انتقالهم من شعور متجاوز حده الى شعور آخر ليس أقل منه خروجاً عن الحد . الا يدلنا هذا على ان عبادة بعض الشعوب القديمة لذوي العاهات من الناس مبنية على مثل هذا السبب .

على ان ميل « أميل » ورفيقيه الى الاتيان بمثل ما اتى به ذلك الاكمه قد بعث فيهم روح الاستطلاع فالموهبة التي اوتيها الاعمى قد يصح لغيره من البصراء ان يكتسبها بالتمرن لانك ترى الأطفال قد دلهم حدسهم الفطريّ على بعض طرق من شأنها انها تنمي فيهم قوة السمع ودقة اللمس اكثر من غيرها فمن ذا الذي اخترع اللعبة المسماة

بالمَسّة[١] لا اخال الا ان مخترعها هو حاوى[٢] او غيره من اعضاء المجتمع العلمي (اكديميا) فان هذه اللعبة التي يسميها الانكليز هنا جلدة الاعمى ليست الا تماميا تتعرف به الطرق التي للأعمى في معرفة ما حوله . انشأ «اميل» ورفيقاه بمارسون فيما بينهم كثيراً من الالعاب وطرق التدرب التي تقتضي الالتفات واعينهم مغطاة ومع كون الفضل كله للابصار بالعينين كانت اثرتهم التي هيجها فيهم ما رأوه من فعل الاكمه توحي اليهم بان النظر الدقيق هو النظر باللمس وانى لفي شك من انهم ينالون من هذه الجهة بكسبهم ما للأعمى من النظر الطبيعي ولو قضوا في مزاولة ذلك طول حياتهم غير انه من فائدتهم ان يتعلموا في اللعب ما بين المشاعر من التعاون وقيام احدها محل الاخرى واني لا أنسى ما كنت تقوله لي كثيراً من انه لا يعرف طرق السمع والبصر حق المعرفة الا من تعاوره الخرس والعمى .

يجب عليّ الآن ان اعود الى ما كنت بصدده من حكاية اصطياد الغراب الاعصم فاقول : لم يعثر الاطفال على وكن واحد في الصخور وذلك لان «اميل» ووليم لا يزالان من الضعف بحيث انهما لا يستطيعان الوصول الى الشعاف الوعرة التي يلجأ اليها ذلك الطائر واما بلّى فلكونها بنت رجل

---

(١) المسة لعبة للأعراب يقال لها الضبطة فاذا وقعت يد اللاعب من الرجل على بدنه او رأسه او كتفه فهي المسة واذا وقعت على رجله فهي الأسن — كذا في معاجم اللغة ويظهر ان هذه اللعبة طبيعية توجد عند جميع الامم ولها كيفيات واسماء كثيرة

(٢) حاوى واسمه والنتين هو عالم فرنساوى ولد في سنة ١٧٤٥ ب . م . ومات في سنة ١٨٢٢ ب . م . استبدل بالحروف الخطية الحروف المجسمة لتعليم احداث العميان القرآءة والكتابة وأسس مدرستهم المشهورة في باريس

يدين بمذهب المرتجفين[1] ترى ان استلاب افراخ الطير من امها من فعل الشر . هذا المذهب الديني كما لا يخفى عليك يورث اصحابه ميلاً عظيما للاحسان الى الحيوانات ولكون قوميدون اقل تحرجاً منها فى هذا الأمر واحرص دائماً على فعل ما يرضى « اميل » كان امهر منهم او أسعد حظاً فى بحثه لانه بتلك الخفة فى التسلق التى تمثل انسان الآجام فى شخصه كان قد اصطاد من بين القنن العوانية والادغال زوجا من هذا الطائر صغيراً نبت ريشه لكن اجنحته لما تطل ليستطيع الطيران فلما رأى الأطفال الزنجي دهشوا دهشة عظيمة لانهم ما كان يخطر لهم على بال انه بهذا القرب منهم يتدخل فى كل مكان وهو كالليل فى السكون فابتهجوا برؤيته وزادتهم فرحاً رؤية الفرخين اللذين كانا شبيهين بكرتين من الزغب ركب فيهما منقاران احمران حتى ان بلّى نفسها ابدت من البِشر والارتياح فى هذه الساعة ما دل على انها نسيت اصول مذهبها القويم .

ولما كنت اعلم ما يعامل به الأطفال الطيور عادة اذا وقعت فى ايديهم بقيت وحدي غير مشاركة لهم فى هذا الابتهاج العام الذي ولّده اصطياد هذين الفرخين ولكن ماذا كان فى وسعي ان افعله أو اقوله فلو انى قلت لهم خلوا سبيل اسيريكم لاطلقوهما ولكن مع الكراهة والأسف من اجل هذا رأيت ان الامثل بى الرجوع الى طريقة اخرى وهى انى وضعت

(١) المرتجفون لقب لجماعة الاخوان فى انكلترا وهم طائفة من رجال الدين أنشأها جورج فوكس المولود فى سنة ١٦٢٤ ب . م . وأول من لقبهم به هو جورج بنيت فى دربى (من اعمال انكلترا) لان جورج فوكس المذكور خاطبه وخاطب من حضروا معه بقوله ارتجفوا اذا سمعتم كلام الله هكذا جاء فى جريدة جورج فوكس نفسه

الفرخين فى حجرة سفلى من حجرات البيت كنا نضع فيها ادوات البستان فاتخذتها بيتاً للطيور ثم اخذت ابين « لاميل » انه يجب عليه ان يتولى بنفسه تغذيتهما لانهما اصبحا محرومين من امهما التى كانت تمولهما وبالغت له عن قصد فيما يستلزمه ضعفهما الشديد من ضروب العناية ليقوم ذلك مقام ما كان يكنفهما من رعاية وليهما الطبيعى فكان من ذلك ان حبس نفسه جزءا من النهار فى بيت الطيور ولم يلبث بهذه الطريقة ان عرف انه قد اصبح أسيراً لاسيريه وصارت كراهته لهذه الوظيفة امراً محتماً والذى استفاده فيها من العبرة هو انه لا يتأتى للانسان حرمان غيره من حريته الا بفقد جزء من حرية نفسه ولذلك لم تمض بضعة ايام حتى جاءنى راجياً اطلاق الفرخين ليمضيا فى سبيلهما .

لما رأيتنى قد نجحت فى سوق العبرة « لاميل » فى الاكمه صممت على الاستمرار فى تجاربى فعلمت ان فى ضواحي قريتنا راعياً صغيراً مشهورا بالبله يسخر منه جميع عرمة الاطفال في القرية ويهزؤن بسذاجته وكنت ارتصد خشية ان يفعل « اميل » فعلهم لان القدوة شديدة العدوى والضحك مما ينبغى الرثاء له واحترامه هو من ضروب القسوة التى فى الاطفال ولكن قد اعانني والله الحمد على ما كنت بسبيله ما اعملته من الفكر وما سنح لى من الفرصة . ذلك انى قابلت هذا الراعي الصغير ذات يوم فى الحقول فتبينت فيه انه يميز كل شاة من شياهه على حين ان قطيعه كله لم يكن فى نظري وفى نظر « اميل » الا شاة واحدة مكررة مائة مرة فتلك إذن مزية له علينا عاهدت نفسي عهداً اكيداً على الانتفاع بها فى سياستى «لاميل» فعرضت عليه فى اليوم التالى لتلك المقابلة ان يصحبنى الى الكثبان

حيث علمت بوجود ذلك الراعي هناك فلما رآه قال وَيْكَأَنِّي به المجنون وهو الاسم الذي يطلق هنا على السخفاء والبُلْه فتظاهرت له بعدم الالتفات الى ماقال ووجهت نظره الى خصيصته في تمييز شياهه بعضها من بعض بمجرد نظره اليها على ضعف عقله مع تشابهها علينا كثيراً فكان ذلك باعثاً لدهشته وموضوع محادثة مع ذلك الابله تبين لنا منها انه على علم تام باسنان شياهه وطباعها بل بأقلّ الشيات الظاهرة فيها فتسنى بذلك « لاميل » ان يقتنع في نفسه بأن هذا الجاهل المسكين اعلم منا في بعض الامور الخاصة به ولكي استفيد من هذا الاقتناع طلبت من الابله قبول ولدي في مدرسته بضعة ايام يعلمه فيها ما اوتيه من العلم فقبل ذلك طيبة به نفسه منتظراً من ورائه مكافأته بل ربما كان ايضاً معللا نفسه بحسن ظن الناس بصلاحيته لبعض الأمور وكان هذا بحسب ماظهر لي من حاله اول اكرام ناله في حياته

واما « اميل » فانه كان على ما يظهر لي اقل ارتياحاً منه بكثير لهذا الامر لانه بسبب حبه لنفسه وعجبه كان يتألم من ان يكون تلميذاً لشخص يعتبره هو ورفقاؤه احمق ويرى ان في ذلك غضاً من كرامته ولكني لم اجد وسيلة اخرى للوصول الى مقصدي على انه لا شيء عليه في ذلك فلشدة ماسيفتخر على اقرانه بابداء ما علمه لهم وان قل ويظهر لهم من الشمم به مثل ما كان للاحمق عليه وقد استفدت من هذا التعليم فائدتين فيه اولاهما ان ملكة تمييز ادق الفروق التي بين افراد القبيل الواحد لاتقتصر على استعمالها في الغنم بل انها متى حصلت يصح ان تتعدى الى جميع ما تكلم عنه علم التاريخ الطبيعي من صنوف الموجودات والفائدة الثانية واراها انفس من الاولى هي ان يعلم بانا على الدوام محتاجون الى التعلم حتى من اضعف

الناس عقلاً .

يتوهم « اميل » انه لا يكون رجلاً الا اذا لعب كما يلعب الجندي ولذلك تراني ابيح له شيئاً من هذا اللعب موافاة لميله ومراعاة لسنه . ولكني منذ بضعة ايام رأيت منه في اثناء هذا اللعب ما راعني واطار لبي اذ رأيت فتيان القرية منقسمين الى فئتين وهو في وسطهم يحمل لهم اللواء .

نعم انهم كانوا يقتتلون بسيوف من الخشب ولكن لو انها من الصلب وكانت هذه الايدي الصغيرة العاملة بها ذات اعصاب قوية لتمثل امامي قطعاً مشهد من مشاهد تلك المذابح الفظيعة التي تصبغ اديم الارض بالدماء ويسميها الناس حروباً فقمت انا بما كان يعمله قدماء السابينيين[1] اعني اننا توسطنا بين الفريقين المتحاربين وحجزنا كلا منهما عن الآخر فرأى « اميل » مني حتماً انني تألمت لهذه الحادثة لانه لما رآني شحب لونه وألقى بنفسه بين يدي طالباً مسامحته

اني في الحقيقة ولا أخفي عليك قد انجرح قلبي لهذا المنظر وان كنت اعلم انك في يوم ما ستعلمه من غير شك ان هناك حروباً مبنية على الحق والعدل وان من اجل ما يتصف به الانسان ويحمد عليه الذود عن حوزة بلاده والموت في سبيل الدفاع عن رأيه ولكنه في السن الذي هو فيه الآن لا يفهم هذه الدقائق ولا يرى في الكفاح على اي حال الا ما يراه معظم الناس من كونه وسيلة للشهرة والتمايز وذريعة الى ظلم الاكفاء والنظراء . وسواء اتخذ الاطفال لواءهم من الورق او الخرق البالية تراهم

(١) السابينيون أمة قديمة كانت تقطن الجزء المتوسط من ايتاليا اقام قسم منها في رومية مع تاتيوس وبقي القسم الآخر في الجبال حتى اخضعه توريوس دانتاتيوس

كالجنود منقادين الى وجدان واحد لا تقوى فيه ولا ايمان فتبعثهم غرائزهم الوحشية على ان يرفعوا ايديا لا ينقصها من اول نشأتها الا قوة القتل ليضربوا بها اخوانهم . اذا كانت الحروب تنتشب بين الحكومات فليس ذلك الا لان غريزتها قد سكنت قلب الانسان من امد بعيد وكيف لا تسكنه ونحن نرى القائمين على الاطفال يصرفون عنايتهم الكبرى فى اعلاء شأن صدى الانسان الى شرب الدم الذي يجعلنا كالوحوش الضواري فاى اسم من الاسماء الجميل ظاهرها كالشرف والظفر وحب الوطن لم يقرن بذلك الميل الذى تعبده الناس كما كانوا يعبدون وثن ملوخ[1] واني استعيذ بالله من ان يكون قلب ولدي مغرماً لهذه الشهوة التى كلها كذب وقسوة.

لما انتهى امر هذه الواقعة اخذت « اميل » بيده وانطلقنا فاتفق ان رأيت فى طريق تلك الساعة كلبين ضئيلين يقتتلان ويعض كل منهما الآخر على عظمة قد قرض نصفها فقلت له تأمل فتلك صورة جميع ميادين القتال ولست على يقين من انه ادرك هذه المرة معنى ذلك الكلام ولكن اقل ما فى الامر انه فهم سبب تأثري لانه وربك كان بالغاً منى مبلغاً عظيماً .

انا مع اعتقادي بما فى تقبيح هذه الاوهام السيئة فى نظر « اميل » وتشهيرها من الفائدة له لا ارضى ان يكون جباناً ولو أعطيت فى ذلك ما في الارض جميعاً . وان الوالدين في الجملة يفرطون أثناء تربية أبنائهم فى اساءة التصرف بما فيهم من وجدان الخوف فانهم يجتهدون فى ارهابهم بكل ما فى وسعهم من طرق الارهاب فيخوفونهم من السماء بحجة أن سخطها ثقل صواعق الانتقام ومن الارض بقولهم ان الله سبحانه قد لعنها وغضب

(١) ملوخ هو معبود الفينيقيين والقرطاجيين وكانوا يقدمون له الاطفال قرابين

عليها بسبب خطيئة آدم ومن الحياة لان اعمالهم فيها ستعرض على حاكم يحصيها جميعها ومن الموت بجملته مخوفاً بمخاوف لا تنقضي الى الابد .

هذه التربية التي اساسها الارهاب والتخويف انما تلائم الارقاء تمام الملائمة ولكني في شك عريب من انها تنشئ رجالاً احراراً . فاذا كان لابد « لاميل » ان يرتاع ويفزع فليكن ارتياعه وفزعه من وجدانه وسريرته ولكني خلافاً لأولئك المربين اجتهد في تطمين قلبه وتسكين روعه من هذه المخاوف المبهمة الخيالية التي كثيراً ما تلازم اذهان الاطفال واود لو اراد شجاعاً جريئاً على الاشياء وديعاً مخفوض الجناح للناس فالواجب أن تكتسي الشجاعة حلة الشرف الحقيق لا ان تتحلى منه بالبهرج الكاذب .

رأيت « اميل » كغيره من الغلمان الذين في سنه يخاف من الليل ومن كل ما ليس معروفاً له فيوجد في اقصى البستان روضة من شجر البندق المتوسط في الكبر لا يجرأ على دخولها وحده بعد غروب الشمس كأنه يخشى ان يؤكل فجأة وعلى اي حال ليس في الامر ما يدعو الى الافراط في الاستغراب فان الاطفال لم يكونوا ليشتغلوا باحدوثة الاصبيع [1] كل هذا الاشتغال الذي نعلمه منهم لو لم يبق فيهم اثر من

(١) اسطورة الأصبيع احدى اساطير شارل برولت الكاتب الفرنساوي الشهير المولود سنة ١٦٢٨ والمتوفى سنة ١٧٠٣ ق . م .)التي وضعها للصغار وسماها أساطير الجن وملخصها : ان حطاباً ضاقت به الحال لأن زوجه كانت ثوراً أقل حملها التوأم فاجتمع له سبعة ولد لأكبرهم عشر سنين ولاصغرهم سبع وولد هذا ضئيلا كالاصبع فسمي (الاصبيع) وكان غصة لوالديه مبغوضاً عندهما على انه اذكى اخوته وادهاهم اصابتهم سنة شهباء اضطرت الوالدين الى التواطؤ ليلا على اضلال الاولاد في غابة ليكيلا يشاهدا موتهم جوعاً فسمعها الاصبيع فبات مسهداً وبكر الى شاطئ فملأ

الانسان الوحشي الذي كان يعيش محوطاً بجميع ما في الكون من الاغوال وربما ان الذي كان يمنع « اميل » من الدخول في تلك الروضة مساء هو اشفاقه من ان يقابله فيها ذئب القبيعة الحمراء[1] وبالجملة فهو نفسه لا يعرف

حبوبه حصى ابيض وكان يلقي كل بضع خطوات من طريقهم الى الغابة حصاة ولما أضل الوالدان الأولاد وعادا طفقوا يصرخون فهداهم الاصيبع الطريق وسلموا . ثم تواطأ الوالدان اخرى ولكن لم يتمكن الاصيبع من الخروج لأخذ الحصى ولكنه ادخر الكسرة التي اصابته من الخبز ففتتها والقاها في طريقهم الى الغابة ولكنه لم يهتد اليها بعد الاضلال لان الطير اكلها فصعد الى شجرة فآنس بصيص نار في الظلام فأمه باخوته فاذا هو بيت الغول فقبلت زوجه ضيافتهم في غرفة بناتها فجاء الغول وشم ريحهم وحاول اغتيالهم فاستمهلته الى الصباح وسمع الاصيبع فاستبدل تيجان البنات الذهبية بقبعاتهم فاشتبه الأمر على الغول وذبح بناته ليلاً وتسلل الاخوة لواذاً ثم تبعهم بنعله ذي الفراسخ فأووا الى كهف ادركه الغول من الغد فنام فوقه ليستريح فسرق الاصيبع النعل وعاد به الى زوجه قائلاً : ان اللصوص قبضوا عليه وطابوا منه الفدآء فارسله بالنعل ليحضر له جميع ماله فصدقت العلامة وعاد بالمال الى اخوته فحملوه الى البيت وحسنت به حالهم . وموعظة الكاتب المقصودة ان الناس يكرمون الجميل من ولدهم ويهينون الذميم مع انه قد يكون سبب سعادة جميع اهله

(١) يشير الى اسطورة اخرى من اساطير ذلك الكاتب ملخصها : ان جارية بارعة الجمال البستها امها قبيعة حمراء زادتها جمالاً فعرفت بها وأرسلتها يوماً لجدتها وكانت مريضة بقرص وصحفة زبدة فصادفها الذئب في الطريق ولكن صده عن افتراسها حطاب فاستبان الذئب مقصدها فدلها على طريق بعيد وسلك القريب الى جدتها فاكلها ونام في فراشها فلما جاءت الجارية دعاها الى النوم معه مقلداً صوت جدتها ففعلت وراعتها اعضاء جدتها التقليدية فقالت : اي جدتي ما اطول يديك ! قال ذلك لأحسن معانقتك . فقالت وما أطول ساقيك ! قال ذلك لاحسن العدو . فقالت : ما اكبر أذنيك ! قال لأجيد السماع : فقالت : ما أعظم عينيك ! قال لأجيد النظر . فقالت ما أطول انيابك ! قال انما خلقت كذلك لآكلك وافترسها

قصد الكاتب ان الاطفال الحسان ولا سيما البنات مخطوون في الاصغاء الى كل من

ان يبر عما يرهبه والحقيقة انه يخاف من ذلك الشيء الذي يسمع عنه بانه يجول في الظلام .

لما رأيت ان آثار الخوف ألصق بالنفس من جميع الآثار والانفعالات وان التظاهر بمقاومتها لا يزيدها الا ثباتاً اقتصرت على ان حسنت «لاميل» دخول الروضة المذكورة مستصحباً الدبة لانها لا ترهب شيئاً ولاستعدادها في كل وقت لاقتفاء اثره فلما رأى بهذه الواسطة ان له رفيقاً لم يمتنع من الدخول ولم يلبث ان عرف ان الذي كان يشوش ذهنه الى تلك الساعة انما هو وحشة المكان وخلوه من الانيس ولم تقتض الاستفادة من هذه العبرة انا ايضاً لاني قد فهمت بها جميع ما قد زاد في نفس الانسان من القوة بسبب اختلاطه بالحيوانات المستأنسة في اعصره الاولى .

انا الى اليوم ملتزمه : مع « اميل » عدم الخوض في المسائل الدينية موافاة لرغبتك ولكن قد حصلت بيننا واقعة في الاسبوع الماضي ينبغي ان اقصها عليك . ذلك اننا رأينا في عصر ذات يوم من ذلك الاسبوع هيدبا من السحاب رصاصيّ اللون كان اول ما رأيناه قزعاً ثم تراكم حتى صار مكفهراً ثم اختلط فصار قطعة واحدة مظلمة اناخت على الماء بكلكلها وكنا نرى شعاعاً اكدر من اشعة الشمس لا يزال يخترق هذا الستار الحدادي في بعض جوانبه ولم يكن الا قليل حتى غاب في شبه

يكلمهم ولا غروان يأكل الذئب كثيراً منهم . وما كل ذئب ذئب القيعة الحمراء فان من الناس ذئاباً يبصبصون ويتملقون للفتيات ويفازلونهن متبعين خطواتهن في الازقة والشوارع ولكنهم على مايظهرون من اللطف والحب اضر عليهن من جميع الذئاب .

دجنة مخيفة منذرة بالمطر ثم انقطع هبوب الريح فلم يبد منه اقل نفحة وقلما كنا نسمع من بعد تنفس الخليج بامواجه وهي تعلو وتنخفض بثقل كأنها صدور المكروبين اللاهثين ونظرنا الى الشاطئ فلم نر فيه عود حشيش واحد يتحرك فكان الكون في سكونه هذا كالمشدوه الغائب عن رشاده يتوقع حصول أمر عظيم له ثم لم يكن الا اقل من ساعة حتى عصفت العاصفة بعد كمونها ثم صدع البرق قبة السحاب المتراكب صدعاً متموجاً وقصف الرعد لأول مرة فاهتز له جميع البيت. فارتعدت فرائص «اميل» واسرع الى محتمياً بي مستنداً الى صدري كأن في قدرتي أن امنعه من هياج القواعل الكونية ثم تعاقبت البروق والصواعق وانشأ ماء الخليج يغلي وهو اكدر مزبد كالسكب (البوتز) صهر في مرجل ثم اخذ الريح بعد ارتفاعه فجأة يبدد سيول المطر مزعجاً وكنا نسمع هزيم الرعد في السحاب من بعيد ونرى وميضاً فجائياً متتابعاً ثم تبع ذلك كله الهدو والسكون

ولما كان « اميل » اكثر من في الارض مسئلة قد سئلني وهو متأثر قائلاً « اماه ما هذا الذي ثار غضبه فوقنا » فحرت هذه المرة حيرة شديدة في اجابته لاني لو قلت له ان ذلك هو الله لكنت قد القيت في ذهنه معنى سخيفاً لذلك الذات الكامل القدرة البالغ الحكمة المبرأ عن الانفعالات فاقتصرت على ان فسرت له باحسن عبارة مناسبة لفهمه سبب هذه الظواهر التي ازعجته ولكن الغلام قد ادرك بحدسه من هذه الاصوات الشديدة التي سمعها من العاصفة ومن هذا الجو المتلئ بالمفزعات الالهية بل وربما انه ادرك ايضاً من عيني اللتين كانتا على رغمي اكثر من لساني كلاماً نم ادرك من كل ذلك ان من ورآء هذه الآثار شيئاً آخر وذلك

حق لان الله سبحانه ليس ظاهراً للعيان فيشار اليه بالبنان ولكنه موجود يحس به الوجدان ويعرفه الفكر والجنان من اجل ذلك قمت انا « واميل » وادينا فرض العبادة لذلك المريد الذي لا حدّ لارادته القادر الذي بيده مقاليد السموات والارض وان كان عقلنا لا يصل الى ادراك كنه ذاته .

انا في كل يوم تبدولي صعوبة العمل الذي شرعت فيه فان طريقة التربية بالعمل التي اسير عليها تقتضي ان يكون في المربي معارف انا خلو من كثير منها ولكن هذا لم يمنعني من اعتقاد انها هي الطريقة الوحيدة في تقويم خلق « اميل » ثم اعلم ان حياتي بدونك انما هي فراغ اجتهد في ملئه بالقيام بذلك الفرض العظيم ولم يبق لي من غرق سفينة آمالي الا ولدنا الذي اتشبث به تشبث الغريق بلوح النجاة واحبه لذاته ولك على ان بعض هواجس مشؤمة تمرّ بخاطري من حين الى حين فتكدر صفاء ما في قلبي له من نفيس عواطف الحب ذلك اني اقول في نفسي ما ذا يكون المآل اذا كان هذا الطفل بعد ما بذلناه له من صنوف العناية يخون في مستقبل ايامه عهود والده وينكر مبادئه ويدوسها تحت قدميه ولا يكترث بما عراه من الآلام طول حياته ؛ اذاً لاقتلتُه . . . كلا بل اقتل نفسي ولكن تحقق هذه الهواجس من المستحيل وارجوا ان يصلني كلمة منك تزيل عني هذه المخاوف المكدرة التي بلغ تشويشها لي الى اعماق نفسي .

« تنبيه ورجاء »

قد انقضت سنة المنار الثالثة فلم يبق منها الا عدد واحد فنرجو من المشتركين الكرام التفضل بارسال قيم الاشتراك حوالة على البوسطة وليعتمد اهل ملوى ونواحيها حضرة الفاضل الشيخ محمد اسماعيل وكيلاً للمنار .